السمات الفنية لصورة المرأة فى الثلاثية

السمة الأولى:

أهم

ما يلاحظ على كتَّاب الواقعية فى الرواية قبل سنة ١٩٥٢- على قلتهم- أنهم يجمعون بين الثقافتين العربية والغربية، بالإضافة إلى الانتماء إلى موقف فكرى أيديولوجى محدد يعبرون عنه. من هنا كان امتياز الأدب الواقعى بنظرة شمولية يصدر عنها فى رسمه للصورة وبنائه للتجربة. وهذا ما نراه فى الثلاثية، حيث نجد الشخصيات تقرن حياتها الاجتماعية بالأحوال العامة للوطن، من ذلك على سبيل المثال أن محمد عفت يقول لصديقه أحمد عبد الجواد: «أنت رجل رجعى ألست تصر على حكم بيتك بالحديد والنار، حتى فى عصر الديمقراطية والبرلمان»[1].

والصراع بين حسن سليم وكمال من أجل عايدة، صراع طبقى بالدرجة الأولى، والفائز بزواجها تأكيد لانتصار الطبقة التى لها السيادة فى المجتمع، لذلك يقول حسن سليم لكمال فى لهجة التحدى: «فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار»[2]، ومن ثم كانت

---

(١) قصر الشوق ص ٢٣٨.

(٢) قصر الشوق ٣٤٩.

خطبة حسن سليم لها «اتفاقية من جانب واحد» كتصريح ٢٨ فبراير (١٩٢٢). وقد ارتبط فشل كمال العاطفى بموت سعد زغلول والمنفلوطى وسيد درويش وضياع السودان، ثم انهيار القيم الدينية وتشويه الصورة المثالية للأب فى نفسه.

وقد أفضت رؤية الكاتب الشاملة لبناء الرواية - كما سبق توضيح ذلك - إلى أن يقدم صورة المرأة - والناس عامة - وقد انعكس عليها تأثير الواقع بجميع أبعاده وسلبياته، ومن ثم لم تعد الشخصية خيرة أو شريرة على الإطلاق، وإنما هى إنسان مركب النزعات معقد التكوين، أو هى بمعنى أوضح الصورة التى نلقى بها البشر فى الواقع المعيش. كذلك فإن الكاتب يؤلف بين معظم النماذج الإنسانية على اختلاف مستوياتها الاجتماعية.

السمة الثانية: أن بناء الرواية لا يخضع للقدرية أو العفوية، وإنما هو بناء متماسك خطط فيه لكل موقف بعناية، ومن ثم كانت الصورة إيجابية متحركة، تدور فى وسط اجتماعى واضح تبدو فيه خصوصية الزمان والمكان. نجد هذه الإيجابية فى كل صور المرأة فى الرواية، فعايدة تصدّق كلام ابن المستشار على كلام ابن التاجر، وعائشة لا يمنعها الحجاب والإرهاب الأبوى من أن تتطلع إلى العالم الخارجى من خلال الطاقة الضيقة المتاحة لها، فتحب من المشربية ضابط الشرطة حسن إبراهيم. كما لا تسلمها - بعد الزواج - طيبة الطبع وهدوء المزاج النفسى إلى سلبية مفرطة، وإنما إلى أن تكون على علاقة طيبة مع جميع

«الأحـــزاب العائلية». وخديجة ترى أن تحقيـــق الوجود لا يتم إلا بأن تستقبل بمطبخها، وإن ثارت الحماة وهدد الأب. وزنوبة العوادة تبدو إيجابيتهـــا فى أنها مرقت من بيت خالتها ومعلمتها زبيدة لتعيش مع أحمد عبد الجواد فى العوامة، لكنها لا تهنأ حتى تظفر بياســـين زوجا وتستمسك به رغم شذوذه.

والمرأة أثنـــاء حركتها فى الرواية واعيـــة بطبيعة الجو الاجتماعى الـــذى تتحرك فيه، ومن ثم تلتزم فى الســـلوك والفكر الحد الذى تبدو به فى الحياة.. وليست هناك شخصية مهما تكن ثانوية تتجاوز دورها فى الواقع. الشـــخصية الوحيدة التى نحـــس أن الكاتب قد رسمها نمطا نظريا، أكثر من كونها شـــخصية بشرية هى سوسن حماد التى أراد من خلالها أن يصور الملامح الجديدة للمرأة فى إطار يستشرف رؤيته، ومن هنا كان اتكاؤه على فكرها وســـلوكها المادى دون محالة إبراز عواطفها الخاصة.

الســـمة الثالثة: أن الكاتـــب فى تقديمه للصورة يســـتعين بكافة الوســـائل الفنيـــة، التى تمكن الروائـــى من أن يجعل الشـــخصية حية فى رواية، حيث إنه لا يقدم الشـــخصية - مهمـــا تكن ثانوية - دفعة واحدة.

وإذا أخذنـــا صورة أمينة مثالا لتصوير الشـــخصية، رأيناه فى البداية يقدمهـــا بالتقرير الســـردى المفصل الـــذى يهتم بالوصف المادى والنفســـى والحركـــة الدرامية، حيـــث يقدم فى البداية وصفا متأنيا شـــاملا يرســـم

لهـا صورة واضحة، سـواء فيمـا يتصل بالصفـات المادية أم الأحاسـيس النفسية[1].

يضاف إلى هذا السـرد الحـوار المركّز الموحي، بحيث يبرز جوانب أخرى للشـخصية، أو يؤكـد بعض ما عرف عنها مـن قبل. مثال ذلك الحوار الذى دار بين الأم وفهمى حين طلب منها أن تكلم والده ليخطب له «مريم»[2].

فهذا الحوار يضيف أبعادا جديدة تعرفنا بشخصية أمينة الخاضعة أمام زوجها المستبد، وهـو - الحوار- الذى يعبر بصـدق عن الموقف والشـخصية. ونجد الكاتب يحاول أن يبـث خلاله نجوى النفس أو ما يعرف بالمنولوج الداخلى، وإن كان على قدر يسير.

ثم يأتى بعـد ذلك تطور الأحداث فى الرواية ليضيف أبعادا أخرى تنمى الشخصية وتزيد من معرفتنا بها. وأخيرا يأتى (حديث الآخرين) ليكون عنصرا آخر من العناصر التى تسـاعدنا على تمثل الشخصية، من ذلـك قول ياسـين عنها: «ما أطيب هذه المرأة. إن الله لا يغفر لمن يسـئ إليها»[3].

ولا تموت الشـخصية أو تغيب عن الرواية، إلا بعد أن يكون المؤلف قد اسـتنفد كل ما يريـد أن يقوله من خلالها، لذلـك كان من الطبيعى أن تمـوت أمينـة بعد وفاة الـزوج، لأنها لا ترى لهـا وجودا بغيره،

---

(١) بين القصرين ص٥.

(٢) بين القصرين ص ١٤١.

(٣) قصر الشوق ص ٤٤٣.

«ولا تعرف الحياة إلا وهو محورها الذى تدور حوله»، بل إنها لم تكن تبصر الحياة ذاتها إلا بعينيه».

هكذا يبذل الكاتب كل جهده ليستعين بعناصر فنية مختلفة تبرز جوانب الشخصية، التى يقدمها ممتزجة بعبير الحياة وملامح الواقع.

السمة الرابعة: أن نهاية الرواية لا تجنى على الشخصية الروائية عند نجيب محفوظ. إن كتاب الرواية الرومانسية مغرمون بالنهايات الفاقعة: سعيدة أو مأسوية، بحيث تبدو هذه النهايات مفتعلة لإثارة الشفقة أو التعاطف مع شخصيات الرواية بدرجة ترضى ذوق جمهور محدود الثقافة والوعى.

أما عند نجيب محفوظ فالنهاية (نهاية الرواية والشخصيات) نابعة أساسا من التطور المنطقى للحدث الروائى الذى سبق أن خطط بعناية فائقة، فعايدة تفضى حتمية الصدق مع الواقع ألا تقبل كمال زوجا برغم إخلاصه فى حبها، وعائشة الجميلة تسلب أعز ما تملك، وتبدو فى صورة المصاب الحزين لتكون رمزا لما أصاب كل جميل فى الواقع، وخديجة تستمر فى الثلاثية لتمثل الصورة العامة لامرأة الطبقة الوسطى بفكرها وسلوكها. الظروف المضطربة جعلت جليلة العالمة غنية ثرية، وزبيدة متسولة تسير فى الشارع هائمة كالمجذوبة فى نهاية الرواية.

نفس القضية تصدق على نهاية الرواية التى تبدو من ناحية نتيجة

طبيعية لتطور أحداثها، ومن ناحية أخرى تعكس صدق تصوير الواقع، حيث انتهت الرواية بدخول أحمد وعبد المنعم السجن تعبيرا عن عدم صلاحية التطرف فى إصلاح الأحوال المضطربة للمجتمع. لكن السجن برغم برودته وظلامه يشع خيوط النور والأمل من خلال قضبان نافذته. ونفس المعنى نجده فى إنهاء الرواية بموت أمينة وميلاد طفلة لعبد المنعم وهو فى السجن، لقد انتهى الماضى القديم، لكن ينبغى ألا نشغل بالحزن عليه، بقدر ما ينبغى أن نتفاءل باستقبال الأمل الجديد. وهذا الرمز أعطى خاتمة الرواية لمسة تفاؤل مشرقة.

السمة الخامسة: أن (اللغة) التى يقدم بها الكاتب تجربته من غير تكلف فى صياغة الأحداث أو الحوار، تتركب فى وضوح عذب، لتؤكد تمكن الكاتب من لغته الموحية الشاعرة. و على رغم هذا لا نجده يحيل الأدب إلى صنعة لغوية، وتقديم لوحات وصفية أو آراء نظرية عامة، لا علاقة لها بالحدث الرئيسى للرواية. فهو يبنى العبارة بقدر ما تخدم الفكرة.

من هنا يلتحم الشكل بالمضمون والحدث بالشخصية، لنجد – فى الرواية الواقعية عامة والثلاثية خاصة – تجربة روائية حية عميقة الأثر، تبرز صورة المرأة (والرجل) من خلالها صادقة مع الواقع الذى تصوره.

إن عناية الرواية (الواقعية) بالموقف الفكرى لم يمنعها من الاهتمام بالجوانب الفنية التى تجعل من الشخصية نامية إيجابية، ومن الرواية

قطعة نابضة من الحياة زاخـرة بالحركة، وعلى هذا يبدو أن «الفن هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه فى معركة الآراء العالميـة، فينقلـب الفن على يده عُدة من عـدد الكفاح فى ميدان الجهاد العالمى. لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى»[1].

هذا الفهم لدور الفن عند آدبائنا الواقعيين، يؤكد أن وظيفة الســرد لا تقـف عند الحكى المسـلى والتعبير العاطفى، وإنمـا يتعدى ذلك إلى المسـاهمة فى خلق القيم وخلق الذات وخلق الواقـع من جديد. انطلاقا مـن هذا الفهم المسـتنير، كان امتيـاز الرواية الواقعية علـى الرواية الرومانسية التى عاصرتها، ويقف نجيب محفوظ كاتبا من أكبر الكتاب إنتاجـا فى مرحلة بحثنا وأكثرهم تقدميـة، لذلك نرى أن الدور الذى قام به يجعله بحق (أكبر معلـم) فى تاريخ الرواية العربية المعاصرة، التى تناصر الإنسان: رجلا كان أوْ امرأة، وتحرّض على الثورة التقدمية فى الفكر والسـلوك، وتستشرف عالم الحرية الرّحب من اجل غدٍ أفضل للحياة والبشر.

هذا ما تؤكده سـيموطيقا الرواية الواقعية.. فى تراث أديبنا الكبير نجيب محفوظ.. عميد الرواية العربية - رحمه الله..!![2]

---

(١) السكرية ص ١٧٩.

(٢) لم نعن بذكر قائمة المصادر والمراجع واكتفينا بما ورد عنها فى الهوامش.